

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [الْعَنْكَرُ: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَدَّوْهُ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النِّسَاءُ: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الْجُرُوبُ: ٧٠].

أما بعد، فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

وبعد..

فلقد اشترط ربنا العليم الحكيم في كتابه الكريم لمن أراد النجاة يوم القيامة والفوز بالنعيم المقيم أن يأتيه بقلب سليم فقال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشُّعَرَاءُ: ٨٩]، وفي هذا بيان لأهمية شأن القلب وعظيم قدره فهو حقيقة الإنسان وأساسه، وهو أشرف ما فيه وعليه مدار الصلاح والفساد، وكل الطاعات والعبادات والقربات لا تصلح ولا تقبل إلا بصلاح القلب وسلامة قصده. وإذا استقام القلب استقامت الجوارح كلها وإذا زاغ القلب زاغت وفسدت. فالإيمان إيمان القلب والتقوى تقوى القلب والخشية والخشوع والإنابة والتوكل، والثبات والاستقامة، بل

الفهم والعلم والبصيرة كل ذلك وغيره موطنه ومستقره في هذا القلب الذي هو روح الإنسان وأصله وأساسه، وهو المحرك الأول للجوارح الذي يدفعها إلى البذل الصادق والتضحية الكبيرة. إن القلب هو صندوق الأسرار ومستودع الإخلاص في البدن ومحل نظر الله عَزَّجَلَّ من العبد فالله لا يريد منك إلا قلبك ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ النُّفُوسُ مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]، وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَامِكُمْ وَلَا إِلَى صُورِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»^(١).

إن هذا القلب هو أصل الصلاح وسبيل الاستقامة والثبات وهو ما ينبغي أن يسعى الدعاة إلى إصلاحه والتركيز على شحنه بالإيمان وتزويده بالتقوى من خلال كلام الله وكلام رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن خلال المواعظ الصادقة من كلام العلماء الربانيين الذين عاشوا معاني الإيمان وأقاموها في نفوسهم. إن حاجتنا ماسة جداً إلى مدارس معاني الإيمان وكثرة الحديث عن أعمال القلوب لاسيما ونحن في عصر اشتدت فيه الفتن وتلونت، وكثرت فيه المحن وتعددت، وكم من متكسر كان سبب سقوطه هشاشة الإيمان في قلبه، وضعف اليقين والبصيرة فيه، وكم من دعوات هدمت أو تعرقلت بسبب مرض في القلب استحكم من صاحبه فباء بالإثم من حيث لا يدري، وكم من عداوات وخلافات نشبت اكتسب فيها كل مخالف نصيباً من الإثم وكان السبب علة مهلكة في القلب وجرثومة سرت فيه فأوقعت صاحبها في الآثام وهو لا يشعر. وكم من إنسان يعيش في هذه الحياة بغير قلب ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، كم من إنسان يعيش في هذه الدنيا بقلب غافل.. بقلب تائه، بقلب مغيب، بقلب قاس غليظ، بقلب ممزق باللهو والغرور. بقلب متخبث بالآثام والفجور، متلطح بالوقوع في الحرام، غارق في الشهوات حتى عمي عن

سبيل سعادته في الآخرة وضل عن سواء السبيل، نعم صار قلبه أعمى لا يعرف الحق ولا يؤثره، وإنما قاتده هواه، وسائقه نزواته ورغباته، وإذا عميت البصيرة فما أشد التيه والضلال والانحراف والهلاك. قال الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿فَإِنَّمَا لَا نَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِن نَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

أي وربي، إذا خالط القلب بشاشة الإيمان فقد حاز المرء بذلك أسباب النعيم المقيم وعاش الدنيا جنة حاضرة ثم كان مرده في الآخرة إلى جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر. ومما تجدر الإشارة إليه أن الإيمان علم يتعلم، وفقه يفقه، يربي الإنسان نفسه من خلاله ويزكيها بنوره، ويظهرها برسوخه وكان صحابة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتعلمون الإيمان قبل العلم فإذا وقع العلم في القلب بعد الإيمان ازداد رسوخه فيه. روى ابن ماجه وغيره بسند صحيح عن جندب بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ فِتْيَانُ حِزَاوَةِ فَتَعَلَّمْنَا الْإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ نَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ فَازِدْنَا بِهِ إِيْمَانًا^(١).

ومن الجدير بالذكر أن الحديث عن أعمال القلوب ليس حديثاً في الرقائق والتربية والتزكية فحسب بل هو متعلق تعلقاً أصيلاً بتوحيد الله جل جلاله؛ إن توحيد العبادة أو توحيد الألوهية قد قال في تعريفه شيخ الإسلام: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

وعبودية القلب هي الأعمال الباطنة التي تنبعث عنها الأعمال الظاهرة فهي الأصل والأساس للإيمان كله، وهي التي تدفع الجوارح للأعمال الظاهرة والأقوال والعبادات والقربات التي ترضي الله جَلَّ جَلَالُهُ.

ومع ما نراه اليوم من كثرة الذنوب، واستحكام الغفلة، وتوقف النمو الإيماني، وتبلد الإحساس، وسيطرة المادة، وغلبة الشهوات؛ نحتاج أن نتذكر دومًا تلك المعاني

(١) رواه ابن ماجه (٢٣/١) برقم [٦١] وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» [٥٢].

الإيمانية التي فيها صلاح للقلوب وزيادة للإيمان فيها وليكن منهجنا منهج الصحابة الكرام حيث كانت كالسهم عامرة بالإيمان وبما يذكر بالله جَلَّ جَلَّالُهُ قال معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اجلس بنا نؤمن ساعة^(١). إن قضيتنا الأهم تجاه أنفسنا هي السعي في إصلاح القلوب وتركيز النفوس فإن القلب هو الدافع والمحرك الأول للحوار والباعث لها على الطاعة، وإن القلب السليم يعطي قوة للجوارح حتى إنك ترى الإنسان المتعب المريض يعمل أعمالاً شاقة ويتحمل أعباء كثيرة؛ لأن الصحة صحة القلب، وإذا كان القلب راضياً عن عمل مؤمناً به أعطى للجراحة قوة على تنفيذه والقيام به.

إن هذا القلب يمرض بل يموت، وأعظم شفاء للقلب وأنجح سبيل لحياته هو تغذيته بالإيمان والطاعات وإعمارها بالذكر والذل وإخلاص العمل لله جَلَّ جَلَّالُهُ وتحريك الإيمان والعمل على زيادته فيه. وهذه الأهمية العظيمة للقلب والمكانة الكبيرة لأعمال القلوب أجمعت أمري على أن أعيش بين حقائقها وأن أستشعر معانيها، من خلال الكتابة عنها والحديث فيها، وليكون ذلك زاداً صالحاً للعمل على إصلاح القلب من خلال مدارس الآيات والأحاديث الصحيحة وكلام الربانيين من الأئمة السالفين، وليس لي في هذا الجمع كبير جهد سوى الجمع والترتيب ولعلك تجد فيه بإذن الله حكماً باهرة، ومواعظ بليغة، وحججاً ساطعة ظاهرة من نقول ثمينة عن أئمة هذا الشأن الذين سبروا أغوار النفس وكانوا ببصيرتهم أطباء حاذقين وضعوا أيديهم على أسباب الداء وشخصوا الدواء. وقد اعتمدت في الحكم على الحديث صحة وضعفاً تحقيقات الشيخ العلامة محمد ناصر الدين الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ.

وأنبه أن ثمة موضوعات تقدم الحديث عنها في موضع آخر وهو كتاب عشاق الحياة فاكتفيت بذكرها فيه والإشارة إليها هنا خشية الإطالة، وهي: التقوى، والصدق، والرحمة، والغيرة، والذكر، واليقين.

(١) رواه البخاري معلقاً في كتاب «الإيمان»، باب الإيمان وقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بني الإسلام على خمس.

وأعترف أن مثل هذا الموضوع الكبير والدقيق ما كان ينبغي أن يتحدث فيه إلا علماءنا الربانيون، ولكن وجدت المسكين مدفوعاً للحديث فيه، وطرحه في اللقاءات الدعوية ثم أراد أن يكون ذلك الطرح بين يدي إخوانه لعل متفعلاً ينتفع به.

وأعذر لأهل الفضل والعلم أني أقحمت نفسي بينهم ولست منهم، وأستغفر الله من جرأتي، وأعوذ به سبحانه أن يكون هذا الكلام حجة عليّ غداً بين يديه، اللهم خذ بنواصينا إلى ما يرضيك عنا وقنا شر نفوسنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم.

وبعد، فهذا هو الكلام والتنظير وبقي التنفيذ والعمل بقي تحويل ذلك الكلام إلى واقع عملي مشاهد. فيتربى المرء على هذه المعاني النبيلة ويكون مباركاً أينما كان، يكون مذكراً بالله بهديه قبل لفظه، وسمته قبل كلامه، يكفي أن يذكر الله إذا رُئي، وأن تقبل القلوب عليه بالمحبة والتوقير، هيا كن أنت ذلك الرجل كن متعبداً لربك، داعية إليه، كن دلالاً للخلق على الحق، ومرشداً لهم إلى الهدى، هيا اعمر قلبك بحب الله وخشيته، طهر قلبك من كل دغل ودنس وبادر أيامك فلست تدري متى تنتهي حياتك، الق ربك بقلب يحبه، الق ربك بقلب منيب إليه، متوكل عليه، مخلص له، ساع في مرضاته، مسابق إلى جناته دار الخلد التي يسعى لها الموفقون من عباد الله جعلني الله وإياكم منهم، وأسأل الله جَلَّ جَلَالُهُ أن يجعل هذا الكتاب خالصاً لوجهه الكريم وأن يثقل به موازيني يوم الدين، وألا يحرمني من شرف البلاغ عنه والدعوة إليه، وأن يثبتني وإياكم على الحق حتى نلقى الله عليه إنه بكل جميل كفيل وهو حسبنا ونعم الوكيل، اللهم أنت المستعان وعليك التكلان ولا حول ولا قوة إلا بك وصلى الله وسلم وبارك على النبي محمد وآله وصحبه.

والحمد لله رب العالمين

وكتبه

سَيِّدُ الْعَالَمِينَ